" The Image of Basra in the Writings of Al-Jahiz " (Reading Texts from Al-Jahiz's Works on Describing the City of Basrah)

Dr. Mariam Abdulnabi Abdulmajeed
University of Basrah / Basrah and Arabian Gulf Studies Center
E-mail: Mariam.ALNajjar@uobasrah.edu.iq

Abstract:

This research focuses on Al-Jahiz's description of the city of Basra, to which he belongs, by portraying its distinctive aspects in his own voice or by borrowing the words of many scholars, literary figures, and well-known personalities. He highlighted its features in an artistic manner that draws inspiration from the greatness of this city. The research examines the image presented by Al-Jahiz in his various writings, by investigating the manifestations and characteristics of Basra, to demonstrate Al-Jahiz's contribution in preserving the history of this city and highlighting its unique traits that have been prominent for centuries, establishing its civilization and distinguishing it among other cities, as it has been blessed with numerous blessings by the Almighty.

Key words: Al-Jahiz, image, city of Basrah.

صورة مدينة البصرة في كتابات الجاحظ

(قراءة نصوص من مصنفات الجاحظ في وصف مدينة البصرة)

أ.م.د. مريم عبدالنبي عبدالمجيد
جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: Mariam.ALNajjar@uobasrah.edu.iq

الملخص:

تضمن البحث توصيف الجاحظ لمدينة البصرة التي ينتمي إليها، برسم مظاهر خاصة بها بصوته أو باستلاله لأقوال كثير من العلماء والأُدباء والشخصيات المعروفة، فأبرز ملامحها بصورة فنية تستمد مداخلها من إعلاء هذه المدينة، وقد تناول البحث دراسة هذه الصورة التي أوردها الجاحظ في كتاباته المتعددة، من خلال استقصاء ماتضمّه من مظاهر وبَشَر، لبيان ما أسهم به الجاحظ في حفظ تاريخ هذه المدينة وإبراز ما تتميز به من سمات منذ قرون طويلة، لإرساء حضارتها وتميزها بين المدن، وبما أنعم الله عز وجل عليها من نِعم.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، صورة، مدينة البصرة.

مقدمة:

تميز الأديب البصري الجاحظ بأُسلوبه الشيّق البليغ، وقد ضمّت كتاباته مقالات سردية متعددة تصوِّر المدن والأشخاص والظواهر، كان يتكئ في التعريف بها على رسم جزيئاتها وما تحتويه من تجليات، إذ امتثل سرده إلى طبيعته الموسوعية في النظر للأشياء والأخلاق والصِّلات.

أما المدن فقد شكّلت بُعدا مُميزاً في تراثه، عن طريق التعريف بمظاهرها العديدة وما تضمُّه من جزئيات، صوّر فيها ملامحها المادية والمعنوية، عبر أُسلوب تبنّى تقنيات لغوية متعددة، مثل التشبيه، والتمثيل، والحجاج، وغيرها من الأساليب.

وتضمن تصويره لمدينة البصرة التي ينتمي إليها سمات تستمد مداخلها من إعلاء هذه المدينة، وقد تبنت هذه الدراسة كشف هذه الصورة التي أوردها الجاحظ في كتاباته المتعددة، من خلال استقصاء ما تضمّه من مظاهر وبَشَر؛ لبيان ما أسهم به الجاحظ في حفظ تاريخ هذه المدينة، وكشف حضارتها وتميزها بين المدن، عبر الآتي:

١.القيمة الكونية:

تنطلق رؤية الجاحظ لمدينة البصرة من قوله في كتابه:(الأوطان والبلدان):"**كان يُقال: الدنيا البصرة**"[١]، وقد حدد الجاحظ عبر خطابه في هذا المدى القيمة الكونية المميزة لهذه المدينة، عبر فضاء القول: بالنص المطلق أو النص الذي يعود لشخصيات مميزة بمكانتها العلمية أو الدينية أو الاجتماعية، وهذا القول يضمّ قيمتها العالية في المدى الأكبر، "ولاستدعاء النصوص في رسائل الجاحظ وظائف عدة، فهو ليس جزءاً من خطة الكتابة، ومكوناً من مكونات بنيتها فقط، بل هو أيضاً وجه أُسلوبي جمالي أو ركن من أركان العبارة الفنية، له مستويات متنوعة من الاستخدام"[٢]، ومنه في هذا النص الآنف ما يثيره من دلالات تعبيرية مستلة بالمجمل من المعطى الذي تحتويه مدينة البصرة، وبما تتوسم به من صفات تعود لها لتتوسع فتضمّ الدنيا بمجملها، وهذا المدى هو الأكبر قيمة، ومحتوى، ومفهوماً، عندما تتمثل به لما حباها الله من خيرات، فالإحالة للقول هنا بالنص المطلق اكتنز دالة لها طاقة مميزة في التأثير بالمتلقي، ولها من الفعل بالذهن، وتحريك المشاعر، من ارتكازها على معطى مرجعي يعمل بوصفه حجة على التميز والانتشار.

وقد تلاحم هذا المدى في سرد الجاحظ مع بُعد حجاجي آخر، بموضع آخر قال فيه: "**قال جعفر بن سلمان: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق...**"[٣]، وحسبك ما تعنيه هذه العبارة التي تعلن تلك العلاقة العالية والتماسّ الكبير بين البصرة والعراق، والقول بالعين في لغة العرب تأتي مثالاً يجمل أفضل مستويات القيمة للشئ الموصوف به، فعين كل شيء خياره[٤]، وهذه القيمة التي تتلازم هنا بين العراق

والبصرة تشكل الصورة الرئيسية التي أراد لها البروز، وهي أن البصرة هي الجزء المميز من العناصر الكونية العالية، المشكلة للنظام الكوني الرفيع، حيث وضعها مثلاً في النسيج المنتج لذلك المدى بتوشحها بتلك الصفة، وبوجودها في تلك البقعة المميزة، "ووظيفة المثل ليست آنية فقط، بل هي على العكس من ذلك على غرار الأنواع السردية عامة، وظيفة بعدية لبعدها التأسيسي، من هنا جاء وصف المثل بالسائر، أي الجاري على الألسنة على مر الأيام"(٥)، وقد استعمل الجاحظ بلاغة المثل للتعريف بكثير من المفاهيم، والصلات، وغيرها من الموضوعات مثل المكان الذي نحن بصدده.

٢.الأبعاد الطبيعية:

صوَّر الجاحظ كذلك الأبعاد الطبيعية المميزة التي تضمها مدينة البصرة، وما شكلته هذه الأبعاد من مستويات راقية لهذه المدينة، ويتجلى هذا المدى بمحتوى الجزئيات التي أظهرها في تشكيل صورتها، عند القول بالماء، وتجلياته فيها، وصلاحه، وما يستتبع هذا الصلاح من كثرة الدور، وطول أعمار البشر، وغيرها، قال :"**ويدل على صلاح مائهم كثرة دورهم، وطول أعمارهم، وحُسن عقولهم، ورفق أكفّهم، وحذقهم لجميع الصناعات، وتقدّمهم في ذلك لجميع الناس**"(٦)، هذا النص يلتزم صورة كلية تتفرع منها صور جزئية، تتوالى وتصبّ في المستوى العالي الذي يريد الجاحظ إبرازه للمدينة، إذ يمتلك القول بها بالتحديد استعماله لمفردة: صلاح، والفعل: يدل؛ للحجاج وبيان الخطاب الأساس الذي يوجهه في نصه، وقد التزم توضيح مدركات حسية منظورة عن طريق الرؤية، وكذلك مدركات ذهنية، بقوله بتلاحم الدلالة على صلاح الماء بكثرة الدور، وهو مشاهد عياني ملموس، ثم طول الأعمار ورفق الأكفّ وهو كذلك، بينما أحال القول بحسن العقول وحذق جميع الصناعات على المدرك الذهني، إذ اعتمد على تلاحم المدركين لتعضيد المعنى بحجة شبه منطقية، عبر الإحالة على العين الناظرة البصيرة، والذهن بالتخييل الذي يلتزمه الفكر المجرد؛ ليخضع المتلقي للتسليم لفكرته ورؤيته الخاصة عندما يؤولها معتمدا على الفكرة التي قدمها الجاحظ له ابتداءً، وقد كانت"الحجج شبه المنطقية من بين الحجج المهيمنة في نصوص رسائل الجاحظ، وهي تستمد قوتها الإقناعية من مشاكلتها لصيغ الاستدلال المنطقية، والرياضية، إذ يسعى المحاجج باستخدامها إلى منح الصحة والشرعية لموضوعه"(٧)، ويسترسل الجاحظ في بيان ما تتمتع به البصرة من خيرات الماء، وكثرته، وقد تناول في هذا المدى تمركز الماء وغزارته فيها، وهذه دالة على الخصب، فهي الأساس الذي تعتمد عليه الزراعة وحياة الناس ورفاههم، وهو بذلك يبرز حضورها الذي يمتد مع أصل الحياة، ونبع استمرارها، قال: "**ولأهل البصرة المدّ والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً، يأتيهم الماء حتى يقف على أبوابهم، فإن شاءوا أذنوا، وإن شاءوا حجبوه... ولو اجتهد أعلم الناس وأنطق الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة، وهذه الأجمة، لما قدر**

عليها"[٨]، لقد كان إعلاء الجاحظ للبصرة في النص الآنف يتمثل بالإيجاب والسلب، بقوله: لو اجتهد أعلم الناس على جمع منافعها في كتاب/ لما قدر على ذلك، ولاجدال فيما يحويه هذا الأُسلوب من بعد يهدف الجاحظ من خلاله التأثير على ذهن المخاطب، ووعيه، للإقرار بفضيلة المدينة وتقدمها، فللأدب "طاقة هائلة التأثير، فيكفي أن يقول الأديب كلماته حتى يكون لها من الفعل بالنفوس، ومن تحريك الأرواح، مايفوق أثره كل قوة، ذلك إن فعلها لا يقتصر على جماعة في وقت من الأوقات، ولكنه من الممكن أن يمتد إلى كل إنسان في كل زمان ومكان"[٩]، ثم يحيل في بيانه لصورة البصرة على طبيعة طين المدينة، قال:"**ويستدل على كرم طينهم ببياض كيزانهم، وعذوبة الماء البائت في قلالهم، وفي لون آجرهم، كما سُبك من مُحّ بيض**"[١٠]، هذا النص أيضا يتضمن الجانب الطبيعي في مدينة البصرة الزاهية، وما تتمتع به من خيرات، ثم تداعياته على الناس والأشياء،"هكذا أصبحت العلاقة بين النص والواقع تُفهم على نحو تحويلي: الواقع يُقرأ كنص له معناه بقدر ماتعامل الوقائع كعلامات ورسائل، وفي المقابل تعامل النصوص كوقائع لها فعلها وأثرها في تشكل الواقع نفسه"[١١]، وهذا الترابط الوثيق الذي كشفه الجاحظ يكتسب أهميته العالية في التعريف بالبصرة عبر آفاق متعددة، لتترسم مظاهرها وجواهرها الطبيعية وأصل وجودها في الكون وهو الأرض التي تضمّها، وقد استخدم في هذا المثال: كرم الطين بالاستدلال من بياض الكيزان، وكذلك من عذوبة الماء البائت في القلال، ولون الآجر وقد مثله بمحّ البيض، فجاءت الصورة المرسومة تجانس المظهر الأرقى لما تملكه المدينة من معطيات طبيعية، وثبَّت ذلك في نسق متتالي يُعضِّد بعضه بعضاً للتصريح برؤيته وتأكيدها.

٣. المباني:

كما أبرز الجاحظ صورة المباني في مدينة البصرة، وروعة أشكالها، ومثّلها بالذهب والفضة فقال: "**وإذا رأيت بناءهم وبياض الجصّ الأبيض بين الآجر الأصفر لم تجد لذلك شبهاً أقرب من الفضة بين تضاعيف الذهب**"[١٢]، وهذا التشبيه له من البلاغة قيمة عالية لأنه يرسم الأشياء بإطار استقرائي يلامس العقل والوجدان معاً، وقد كان تفكير الجاحظ "استقرائياً بشكل إجمالي، فإذا عرضت له مسألة من المسائل راح يتأملها، ويلاحظ ما يتصل بها، وما يصدر عنها، وما يحيط بها، ويجمع الملاحظات عن طريق التجربة والسماع والعيان، ثم يستنبط أحكامه"[١٣]، التي يكون لها عبر هذا الأُسلوب من التأثير في المتلقي تفاعلاً كبيراً، لأنه أكثر إلحاحاً على تعضيد المعنى وترسيخ الدلالة، وقد كانت الإحالة على الرؤية باستخدامه للفعل رأى لمظاهر البنيان في المدينة، تشكل صورة عيانية تبنَّته مع رسم جزئيات ذلك البنيان التي أحصاها بذكر اللون الأبيض لمادة الجص والأصفر للآجر، ثم تعضيد تلك الصورة وتشبيه جمال ذلك البنيان ورصانته وكأنه الفضة رُصَّت بين طبقات الذهب، لتعبَّر اللوحة بمجملها عن ملامح مباني

البصرة ورفاهيتها، بما حمله تشبيهه لمادة بنائها بتلك المعادن المعروفة بنفاستها، الجاحظ في هذا البعد يبرز الصورة التي تتجلى في مباني المدينة في إطار الفخر، والإعلاء، بمعيار يعززه ببعد جمالي ثري يرصد تجليه وفخامته، حيث يستمد قيمته من المحتوى الذي مثَّله به وهو الذهب والفضة.

٤ .الأسعار:

وتكلم الجاحظ في بيانه لصورة المدينة عن الأسعار في البصرة، وتواضعها، وجودة الطعام مع الكثافة السكانية فيها، وهذا نتاج معياري يرتفع بالعيش فيها إلى الرفاهية، كأثر لما تتملكه من مميزات، تحمل في طياتها مضموناً للإعلاء يشير في مضمره إلى قراءة خاصة لهذه المعطيات، "فبنية النص تتشكل وفق البنية الاجتماعية والذهنية للناس، وتعكس الوسط الذي ينتمي إليه الكاتب، إضافة إلى رؤيته للعالم"(١٤): قال: "**ولم نرَ بلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماجم بها إلاّ البصرة: طعامهم أجود الطعام، وسعرهم أرخص الأسعار**"(١٥)، وهذا المعنى يلتزم الإحالة على المنظور العيني أيضاً، لتأكيد دلالاته عبر استخدامه للفعل:رأى، المتعالق مع النفي بالأداة لم، والنفي يمتلك من القدرة اللغوية البيانية على التأثير في وعي المتلقي، وإثارة ذهنه عبر دلالة التضاد الظاهر في القول به، ليرفد المعنى بقوة وعمق يأخذ مداه من السياق المتجلي في النص الكلي؛ ليؤدي تأثيره المطلوب لدى المتلقي، فالنفي أُسلوب لغوي خاص يعتمد أُسلوب نقض وإنكار يستعمل لدفع ما يرد من أحاسيس تساور ذهن المخاطَب خطأ(١٦)، فضمت صورة الجاحظ ملامح خاصة ملتصقة مع الحاجات اللازمة للعيش الرغيد في المكان الذي يحمل راحة العيش بوجود الأسعار الممكنة وجودة الطعام بأرخص الأثمان.

٥. التمور:

كما أبرز الجاحظ تمتع البصرة بالتمور المميزة بخيراتها من الدبس العذب وفسائل النخيل ورخصها، وهي صورة خاصة كشفها الجاحظ برؤيته الفنية التي أبصر بها الجزئيات الدقيقة في مدينته، وصورها ببلاغته مترصداً أجمل ما فيها، قال:"**تمرهم أكثر التمور، وريع دبسهم أكثر، وعلى طول الزمان أصبر، يبقى تمرهم الشهريز عشرين سنة، ثم بعد ذلك يخلط بغيره فيجئ له الدبس الكثير، والعذب الحلو، والخاثر القوي، ومن يطمع من جميع أهل النخل أن يبيع فسيلة بسبعين ديناراً، بحونة بمائة دينار، أو جريباً بألف دينار غير أهل البصرة؟**"(١٧)، لقد جاء استعمال الجاحظ لصيغ التفضيل بالمفردتين:(أكثر،وأصبر) للتعبير عن الأفضل، إذ يمتلك هذا الأُسلوب دلالات تحيل على المبالغة، والتفاوت، والتكثير في الصفة، والزيادة في القيمة المصطفاة، وقد تعاضدت دلالات الكثرة في قوله: تمرهم أكثر/ ريع دبسهم أكثر/ الدبس الكثير/، مع دلالات الاتساع الزماني لذلك المحتوى في قوله: على طول

الزمان، لتقوية المعنى والارتفاع بالمفهوم المراد وذلك بتوجيهه على أبعاد يصور فيها مظاهر خاصة بتلك المدينة تتمركز في نصه على الفخر في سياقه المضمر وعلى التفضيل في سياقه الظاهر.

٦.الصناعات:

ويبرز الجاحظ مدينته البصرة برسم صورتها المشرقة في نسق متواتر بأُسلوب تميز به في مجمل كتاباته، "ويعمل النسق على بلورة منطق التفكير الأدبي في النص، كما يحدد النسق الأبعاد والخلفيات التي تعتمدها الرؤية"[١٨]، قال: "**بالبصرة الأثمان مُمكنة والمُثمنات ممكنة، كذلك الصناعات، وأُجور أصحاب الصناعات**"[١٩]، لقد تمثل عبر هذا النص دلالة الممكن للأثمان والصناعات وأُجور أصحاب الصناعات لبيان مظهر خاص تضمّه المدينة، في سياق التعريف بهذه السمة التي قلما توجد في مدينة أُخرى، فهي محور مركزي بوجوده يرتقي بالعيش فيها ويحيل على المفهوم الإجمالي لتميزها، فقد التزم العمل النصي للجاحظ بمجمل مصنفاته على وصف واقعه الذي عاش فيه بمختلف تجلياته، ولذلك كانت بيئته هي الإطار الذي يضم دلالاته الموضوعية التي استثمرها معبرا عن تفاعله معها، وإعجابه بها، وانتمائه وإخلاصه لها، فوظف ماتحتويه وصوره بوصفه مرجعية تضم ذكرياته وصلاته ومظاهرها.

٧.السفن:

كما صور الجاحظ السفن التي تجيء للبصرة وكثرتها وانتسافها انتسافاً من الناس، وتصوير الجاحظ لهذه الأبعاد هو برهان مادي وحجة منطقية على تفوق البصرة وبيان قيمتها بين المدن،" فالحجج المنطقية من بين الحجج المهيمنة في نصوص الجاحظ، وهي تستمد قوتها الإقناعية من مشاكلتها لصيغ الاستدلال المنطقية والرياضية، إذ يسعى المحاجج باستخدامها إلى منح الصحة والشرعية لموضوعه"[٢٠]، قال: "**ما ظنّك ببلدة يدخلها في البادي من أيام الصرام إلى بعد ذلك بأشهر، ما بين ألفى سفينة أو أكثر في كل يوم، لا يبيت فيها سفينة واحدة، فإن باتت فإنما صاحبها هو الذي يُبيها، لأنه لو كان حطّ في كل ألف رطل قيراطاً لانتسفت انتسافاً**"[٢١]. هذا النص يعبر أيضاً عن الازدهار الاقتصادي والقوة الشرائية التي تمتعت بها المدينة في القرن الثالث الهجري.

٨.أحوال الناس:

تكلم الجاحظ أيضاً عن الناس وأحوالهم، وفي تصوير مدينة البصرة ذكر الجاحظ أهل البصرة وما يمتازون به من صفات عالية، ومن ذلك ماورد على لسان عبيد الله بن زياد في خطبة له، قال فيها إن أهل البصرة: "**أوسع الناس بلاداً، وأكثره جواداً، وأبعده مقاداً، وأغنى الناس عن الناس**"[٢٢]، وللقول سلطته في بيان الكثير من الصفات التي يتوخى خطاب التأليف الأدبي إيصالها، "فهم الخطاب لا يتمّ إلاّ بالنظر إلى

جوانبه التمثيلية والدلالية والتداولية، ذلك لالتحامها بأطراف عملية التواصل الأساسية وهم المخاطِب والبنية والمُخاطَب"[٢٣]، وقد ورد في هذا النص أُسلوب التفضيل بما يكتنزه من طاقة بلاغية في الدلالة على الأفضل، مُضمّناً معنى الاتساع والكثرة والزيادة وذلك عبر المفردات: أوسع، وأكثر، وأبعد، وأغنى، فحمَّل المعنى أُطراً متعددة تضم تميّز أهل هذه المدينة عن غيرهم فهم الأوسع في البلاد، والأكثر في الجود، والأبعد في المقاد، وهم أغنى الناس عن الناس، وبهذا التزم خطاب الجاحظ بتحديد مفاهيم تتصور فيها البصرة من عدة جوانب وبعديد الأقوال، وهي طرق متلاحمة تتآزر في نصوصه لإبراز صورتها الراقية والمميزة بين مدن الأرض.

٩. مقارنة مدينة البصرة بغيرها من المدن:

التزم الجاحظ في تصويره لمدينة البصرة عدة أساليب، منها استلاله لأقوال العديد من الشخصيات العلمية عالية المستوى بالفخر بصفاتها على غيرها من المدن، فهو يستخدمها بوصفها حجة، و" تستخدم حجة السلطة الحضوة الدينية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية أو الثقافية أو الاجتماعية التي يحظى بها الشخص؛ لإقناع المتلقي بدعواه، فأفعال هذا الشخص وأقواله وأحكامه وسائل حجاجية لصالح هذه الدعوة، وقد لاتتمثل هذه الحجة في شخص معين باسمه، بل قد تتمثل بالإجماع والرأي العام والعلم والعلماء والدين والشعر والشعراء والحكماء والبلغاء"[٢٤]، ومنه قوله: " **وقد قال بعض خطبائنا: نحن أكرم بلاداً، وأوسع سواداً، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً، وأكثر خراجاً، لأن خراج العراق مائة ألف ألف واثنا عشر ألف ألف، وخراج البصرة من ذلك، ستون ألف ألف، وخراج الكوفة خمسون ألف ألف**"[٢٥]، يتكئ القول في النص الآنف على لسان النحن ويستجلي المفاضلة ضمنا عبر تعداد خصائص تتجلى في الذات الجماعية التي تحيل على المدينة وخيراتها في سبيل التفخيم، ولاسيما في إحالة المتكلم للضمير الجمعي الذي يعضد المبالغة والتعميم، بالكرم للبلاد، والأوسع في السواد والأكثر في الساج والعاج والديباج، فضلا عن الخراج.

ويعضد الجاحظ هذا المدى بفخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة، ذاكراً ما تتميز به البصرة، قال: "**والعاج متجر كبير، ويتصرف في وجوه كثيرة، ولولا قدره لما فخر الأحنف بن قيس فيما فخر به على أهل الكوفة، حيث قال: نحن أكثر منكم عاجاً، وساجاً، وديباجاً، وخراجاً**"[٢٦]، وللمفاخرة مقام خاص في رسائل الجاحظ فهو لم يأت اعتباطاً كيفما اتفق، بل جاء عن دراية وقصد لما لهذا المقام من دور حجاجي كبير وواضح[٢٧]، ليسند إعلاء ماتتمتع به البصرة من الثروات الطبيعية النفيسة المتمثلة بالعاج والساج والديباج ويضاف إليها الخراج الكثير الذي يدعم تميزها، حيث يسند قيمتها الثمينة في مدى قيمي يؤازر فخرها على غيرها من الأماكن.

وفي إعلاء المدينة وتمييزها على غيرها يقارن الجاحظ بين ثمن بناء الدور فيها وفي بغداد والأهواز، ذاكراً ماتمتاز به من خيرات جعلت الأثمان فيها أقل من غيرها من الأماكن، قال:" **ولو أن رجلاً ابتنى داراً يتممها ويكملها ببغداد، أو بالأهواز، وفي موضع من هذه المواضع، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألف، لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين واللبن، بالآجر والجصّ، والأجذاع والساج والخشب، والحديد والصنّاع، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها، وهذا معروف**"[٢٨].وبذلك صور الجاحظ مدينة البصرة بتنوع مظاهرها، وأبرز تميزها وروعة طبيعتها وازدهارها في مختلف الميادين.

الخاتمة:

ضمّت مصنفات الجاحظ مقالات سردية متنوعة، صوّر فيها المدن والأشخاص والظواهر، فرسم ملامحها العامة، وجزيئاتها، وما تحتويه من تجليات، إذ امتثل سرده إلى طبيعته الموسوعية في النظر للأشياء والأخلاق والصِّلات. وقد شغلت المدن حيزا واضحا في كتاباته، فاستجلى كثيرا من مظاهرها وما تحتويه من أبعاد مادية أو معنوية، عبر أُسلوب تميز به مستعملا تقنيات لغوية متنوعة، مثل: التشبيه، والتمثيل، والتضاد، والحجاج، وغيرها من الأساليب.

أما مدينة البصرة التي وُلد ونشأ فيها فقد صورها برسم سمات يعتمد في سرده لها على التفضيل، كإبرازه لقيمتها المميزة بين بقاع الأرض، مستثمرا فضاء القول: بالنص المطلق أو النص الذي يعود لشخصيات مميزة بمكانتها العلمية أو الدينية أو الاجتماعية.

وصور الجاحظ كذلك الأبعاد الطبيعية المميزة التي تضمها مدينة البصرة، وما شكّلته هذه الأبعاد من مستويات راقية لهذه المدينة، ويتجلى هذا المدى بمحتوى الجزئيات التي أظهرها في تشكيل صورتها، عند القول بالماء وتجلياته فيها، وصلاحه وما يستتبع هذا الصلاح، فضلا عن كرم طين المدينة وجودته.

كما أبرز الجاحظ صورة المباني في مدينة البصرة، وروعة أشكالها، ومثّلها بالذهب والفضة، وتكلم في بيانه لصورة المدينة عن الأسعار، وتواضعها، وجودة الطعام مع الكثافة السكانية فيها، وهذا نتاج معياري يرتفع بالعيش فيها إلى الرفاهية كأثر لما تتملّكه من مميزات.

وكذلك أبرز الجاحظ تمتع البصرة بالتمور المميزة بخيراتها من الدبس وفسائل النخيل، ورخصها، وقد تمثَّل عبر هذا الاتجاه دلالة الممكن للأثمان، والصناعات، وأُجور أصحاب الصناعات؛ لبيان مظهر خاص تضمّه المدينة، في سياق التعريف بهذه السمة التي قلما توجد في مدينة أُخرى، كما صوّر السفن التي تجيء للبصرة وكثرتها وانتسافها انتسافاً من الناس.

وذكر الجاحظ كذلك أهل البصرة، وما يمتازون به من صفات عالية، وفي الفخر بصفات البصرة على غيرها من المدن التزم الجاحظ استلال أقوال بعض الشخصيات العلمية عالية المستوى بوصفها حجة تؤيد تميزها وفضلها.

الهوامش:

١. رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، ٤/ ١٣٨.
٢. خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، د. محمد مشبال، ٨٥.
٣. رسائل الجاحظ، ٤/ ١٣٩.
٤. ينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، مادة (عين).
٥. السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات، إبراهيم صحراوي، ١٤٥.
٦. رسائل الجاحظ، ١٤١/٤.
٧. خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، ٧٢.
٨. رسائل الجاحظ، ١٥٤/٤.
٩. الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، حنا الفاخوري،٢٠.
١٠. رسائل الجاحظ، ١٤١/٤.
١١. هكذا أقرأ مابعد التفكيك، د. علي حرب، ٢١.
١٢. رسائل الجاحظ، ١٤١/٤.
١٣. المناحي الفلسفية عند الجاحظ، د. علي بو ملحم، ٢٩٩.
١٤. نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د. حسين خمري، ٧٢ .
١٥. رسائل الجاحظ، ١٤٥/٤.
١٦. ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، ٢٤٤.
١٧. رسائل الجاحظ، ١٤٥/٤.
١٨. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة(عرض تقديم وترجمة)، د. سعيد عَلوش، ٢١١.
١٩. رسائل الجاحظ، ١٤٤/٤.
٢٠. المكان نفسه.
٢١. المكان نفسه. البادي: الأول.
٢٢. البيان والتبيين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ٨٠/٢.
٢٣. البلاغة وتحليل الخطاب، حسين خالفي، ٩.
٢٤. خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، ٨٤.
٢٥. رسائل الجاحظ، ١٤٧/٤.
٢٦. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١٥١/٧، وينظر في القول بالمعنى ذاته: البيان والتبيين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، ٥٧/٢، رسائل الجاحظ، ١٣٨/٤.
٢٧. ينظر: خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، ٢٠٤.
٢٨. رسائل الجاحظ، ١٤٤/٤، ١٤٥.

المصادر:

١. البلاغة وتحليل الخطاب، حسين خالفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١١.

٢. البيان والتبيين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة ـ مصر، ط١، ٢٠١٠.

٣. الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم، حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٦.

٤. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط١، ٢٠١٣.

٥. خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، د. محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط١، ٢٠١٥م.

٦. رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة– مصر، ط١، ١٩٧٩.

٧. السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات، إبراهيم صحراوي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة ـ الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م.

٨. في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، منشورات دار الرائد العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر–بيروت، (د.ت).

١٠. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض تقديم وترجمة)، د. سعيد عَلوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، سُوشبريس، الدار البيضاء ـ المغرب، ط١، ١٩٨٥.

١١. المناحي الفلسفية عند الجاحظ، د. علي بو ملحم، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٠.

١٢. نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د.حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون(بيروت_لبنان)، منشورات الاختلاف (الجزائر_العاصمة)، ط١_ ٢٠٠٧م.

١٣. هكذا أقرأ مابعد التفكيك، د.علي حرب، ط١–٢٠٠٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.